صُوَرُ السيّد الرّئيس

قصص قصيرة جداً

◆ خالد جبور

أبْهرتنا الفكرة، وفجّرت حماستنا للنّيل من مدرس التاريخ الذي أذلّنا، وقهرنا منذ بداية العام الدراسيّ، إذ فرض علينا شخصيّته القويّة بسلاطة لسانه وببديهته الحاضرة دوماً، متحصّناً بقامته المديدة وعضلاته المفتولة كأبطال المصارعة، وعلى الرّغم من أنّه لم يلجأ ولو لمرّة واحدة إلى استخدام هذه العضلات ضدّ أيّ واحد منا، إلاّ أنّ حقيقة تمتّعه بِها كانت سلاحاً كافياً لردع كلّ مَنْ تسوّل له نفسه بشيء من المشاكسة، أو بإثارة أدنى فوضى أثناء الدّرس.

وقد تجلت لنا الفكرة كما شرحها إبراهيم، قبيل حصة التاريخ ، بمنطق فصيح ، جعلنا ننسى بلادته الراسخة في الدروس، واستقرت في عقولنا وقلوبنا على الفور، فإذا كان أستاذ التاريخ رجلاً قويّاً، فإنّه لا يُمكن بالفعل أن يكون أقوى من السيّد الرئيس، ولن يجرؤ، بأيّ حال من الأحوال، على أن يتحدّى هيبته، أو يحتجّ على صوره إذا ما ملأنا بِها حجرة الفصل، وسوف نتسلّى ونضحك كثيراً ونحن نراقب قلّة حيلته، وعجزه التام عن فعل أيّ شيء !!

وحين أخرج إبراهيم من درج طاولته عشرات الصور للسيّد الرّئيس (صور قديمة بالأبيض والأسود وأخرى حديثة ملوّنة، وصور كبيرة تُظهر تفاصيل وجه السيّد الرّئيس ، وأخرى صغيرة لا تكاد تكشف شيئاً من ملامحه) ؛ تخاطفناها من بين يديه ، وأسرعنا نلصقها بالغراء فوق السبورة والجدران والطاولات، ثمّ جلسنا ننتظر الأستاذ بكلّ أدب وهدوء، شابكين أيدينا على الطاولات كتلاميذ الابتدائي، مطبقين أفواهنا بمكرٍ لم تستطع أعيننا المتلامعة تمويهه أو إخفاءه ..

وما إن عبر الأستاذ عتبةَ الباب بِهيبته المعهودة، حتى انتصبنا واقفين، ورددنا تحيته بصوت عال منغّم، وشى بمزاجنا السّاخر، ونبّه الأستاذ إلى أنّه إزاء وضع غير طبيعيّ، فأخذ يسلّط نظراته على وجوهنا، لعلّه يقرأ فيها سرّ هذا التغيير المفاجئ في سلوكنا ، وحين لاحظ زوغان أعيننا، وانحرافها باتجاه الصور المعلّقة في كلّ مكان، استرق نظرةً خاطفة إلى الجدار

الأيمن، حيث اجتذبته الخلفيّة الفاقعة لإحدى صور السيّد الرئيس، ثمّ غمرنا بنظرة جديدة، كشفت عن مزيج من الدهشة والغضب، وأشار إلينا بيده:

- اجلسوا ..

فجلسنا بشيءٍ من الضجّة والجَلَبة، متبادلين الابتسامات الخاطفة والغمزات الخفيّة، متهامسين بكلمات ساخرة غير مفهومة، تنذر بانفلات صاخب يُطيح بهيبة أستاذنا وجبروته للأبد، لكنّنا لم نلبث أن سكتّنا فجأة كأنّما بسحر ساحر، وتعلّقت أبصارنا بوجه أستاذنا الذي لم نعرف كيف زالت أمارات دهشته وغضبه، وحلّتْ محلّها ابتسامة عريضة غامضة، غير متوقعة لنا على الإطلاق، وإذ حافظ الأستاذ على ابتسامته تلك برهة من الزمن دون أن يتكلّم، فقد بدأنا نشعر بالقلق العميق ممّا فعلناه، ورحنا نترقب، بتوجّس ، ما سيصدر عنه ، غارقين أكثر فأكثر في بحر الصمت .

وقد انشغل الأستاذ عنّا قليلاً بتأمّل صور السيّد الرئيس بوجه جامد، قبل أن يعود إلينا، ويغمرنا بابتسامته المُربكة، مُمرّراً عينيه على وجه كلّ واحدٍ منا تقريباً، قاطعاً الصمت بصوته الهادئ الرّخيم :

- أرى أنّكم زيَّنتم الفصل بصور السيّد الرّئيس، ويُمكنني القولُ إنّ هذا شيءٌ حسنٌ، بل وحسنٌ جداً إذا شئتم !! .. ولكنّكم نسيتم أمراً مهمّاً، ما كان عليكم أن تنسوه أبداً، نسيتم يا أعزّائي أنّكم بعَرْض صور السيّد الرئيس على هذا النحو غير اللائق، أي من غير براويز، ولا زجاج يحميها، إنّما تقلّلون من أهميّتها، وتعرّضونَها للغبار والخربشات غير المسؤولة، وهذا - كما تعلمون - فعلٌ يُحاسبُ عليه القانون !!

تبادلنا النظرات بصمت، وقرأنا في وجوه بعضنا بعضا علامات الخيبة والارتباك والحيرة، ثم عدنا لمتابعة الأستاذ الذي اتسعت ابتسامته ، وواصل حديثه إلينا، مغلّفاً مكره التربويّ الغويط بنبرةٍ أبويّة دافئة :

- للخروج من هذا المأزق، أقترح عليكم أن تقوموا الآن، مشكورين، برفع صور السيّد الرئيس من أماكنها، ولكم مطلق الحريّة في أن تُعيدوها، فيما بعد، مُبَروزةً بأجمل البراويز، أو لا تُعيدوها على الإطلاق !! ..

نظرنا في وجوه بعضنا بعضاً من جديد، كأنّنا نتشاور، ثم وجدنا أنفسنا نَهبّ جميعاً متوزّعين في أرجاء الفصل، وننهمك، بكثير من الجذل والحماسة، في إزالة صور السيّد الرئيس من كلّ مكان !!

وبدا لنا أن الأستاذ يغالب ضحكة كبيرة، وأنه يشاركنا الشعور بالجذل، إذ ظلت عيناه تومضان ببريق غريب، وظلّ ينقلهما بين أظافرنا الناشبة في صور السيد الرئيس، وبين ما يتفتت من هذه الصور، ويتساقط كندف القطن بين أقدامنا !!